البـــــــرج

كل عام كان يصل الى مارسيليا سيرك " رانسى" ويقيم خيمته على الساحة الرئيسية بالمدينة والتى كانت تسمى بالسهل وكان والدى وهو فارس قديم يحب الجياد وقد كانت هى الفقرةالمثيرة في برنامج هذا السيرك والتى كان " العجوز نابليون رانسى يحرص على تقديمها بواسطة ابنه هنرى على أعلى مستوى .

كان والدى يصحبنا كل صباح كل أحد لمشاهدة التدريبات التى كان يسمح للجمهور بمشاهدتها وكانت هذه الحفلات التى تضم عددا قليلا من الهواة تعطينى احساسا بالمتعة فلم اكن اشعر بالملل وأنا ارقب الجياد الجميلة السوداء والبيضاء بذيولها وأعرافها المقيدة بجوافها حيث الردف يظهر مربعات منسقة كنت وقتها في الثامنة او التاسعى ولم اكن ابلغ الرابعة او الخامسة عندما اصطحبت لاول مرة الى السيرك نفسه مع مجموعة الخميس او الاحد مساء فلم انسى بعد ذكرى هذه العروض وبصفة خاصة ذكرى فقرتين احداهما كانت تصيبنى بالهلع وكانت امى تجد صعوبه بالغة في تهدئتى بعد ذلك كانت الفقرة تتعلق باثنين من المهرجين يقوم احداهما وهو يرتدى ثوبا فاخرا بدور النحلة ويطوف الحلبة بسرعة مذهلة مقلدا بذراعية جناحى الحشرة المتذبذبة وهنا يصيح المهرج الاخر بأنفه الاحمر وثيابه الفضفاضة "آوه النحلة أنظر جميعا الى النحلة الجميلة التى تفرز عسلا ! بينما المهرج الاول بوجههالابيض وثوبه الفاخر المزركش يؤدى حركاته الطائرة فيصيح المهرج الثانى وهو يتابعة " إعطينى عسلا يانحلتى الجميلة " وتستمر اللعبة على هذا النحو فترة طويلة فوق سجادة تسحب ببطء تمهيدا لاعداد ادوات الفقرة التالية بينما يعلن المهرج الثانى توسلاته الاخيرة " إعطينى عسلا " فيستدير المهرج الاول وينفث في وجهه الاخر وعلى هيئة رذاذ خفيف الماء الذى ظل محتفظا به في فمه اكثر من خمس دقائق وقدكان هذا السيناريو كمما هو واضح بسيطا وحيا وأعتقد انى لم اضحك في حياتى مثلما ضحكت في هذا اليوم وأنا المعروف بالضحكات الهيستيرية ولكن كل شيء تغير عندما دخل رجل بالغ الاناقة يرتدى قبعة رفيعة المستوى براقة المظهر وثوبا أسود اللون ينتهى بذيل كانت الحلبى تضم مائدة كتلك التى في مطبخنا وعددا كبيرا من المقاعد .

تناول الرجل مقعدا وبدلا من أن يجلس عليه رفعه ووضعة بأحدى قدميه على ذقنه وأخذ يطوف الحلبة والمقعد على وجهه ثم تناول عددام من المقاعد ووضعها على اطراف اصابعة وعلى طرفى حذائه وقد بدت تلك المقاعد وكأنها مثبته بمسامير في اماكنها التى وضعها فيها . وكان يترنح ولكن لكى يحافظ على توازنها وليس على توازنه هو وتحين اللحظة التى يضع فيها الرجل مقعدا على المائدة ويقفز فوقه ويقدم اليه مقعدا اخر يضعه فوق المقعد الاول ثم يقفز أيضا فوقهما بينما الموسيقى تزداد هدوءا ومن مقعد الى اخر يصل الرجل الى ارتفاع مخيفا تتوقف عنده الموسيقى ليعلو ايقاع الطبل . ويستقر بين يديه مقعد حديد عن طريق خيط رفيع وقد اصبح يقف على عشرة او اثنى عشرة مقعدا بحيث لم تعد وقفته ثابته تماما فوق هذا البرج من المقاعد . وكان عليه أن يضع هذا المقعد الاخير فوق كل هذه المقاعد ليصعد أيضا هذا ماشرحته لى امى وأنا أتشبث بيدها ولا أتوقف عن سؤالها طوال الوقت مستفسرا عن سير الاحداث وأنا احس بحلقى ينقبض مع حركات البرج المتمايلة .

سمعت أمى وهى تهمس بصوت منخفض في أذنى والدى : " من الغباء عرض ذلك امام الاطفال أن يدى الصغير متجمدتان إنه يموت خوفا " وأضافت بقولها :" وأنا أيضا اكثر منه " لم اكن اجرؤ في الحقيقة على النظر الى أعلى " عندما كنت أجازف بالنظر بأحدى عينى في أتجاه البرج أراه وهو يهتز بعنف . وفجأة توقف صوت الطبل تماما واختفى العازفون جميعا وأخذ الحاضرون يصفقون ورفعت عينى فرأيت الرجل وهو يحى بقبعته وبعدأن أطمأن الى نجاح فقرته أتمها بمأ ثرة اخيرة أشاع حركة في عمود المقاعد إنتزعت صيحاتنا جميعا فتوقف ايقاع الطبل من جديد وانفرط عمود المقاعد في اتجاهنا وانطلقت صرخة جماعية القيت وحهى ناحية أمى حتى لا ارى الرجل وهو يصطدم بالارض ولكن أمى همست الى بقولها "فعل ذلك عن عمد " وركزت بصرى فرأيت الرجل الذى لم يصطدم على الاطلاق يثق وسط الحلبة ويلوح يقبعته يمينا ويسارا يغمرة احساس كامل بالسعادة قالت امى " لم يكن يسقط بالفعل هل تفهم ؟

لا أعرف مافهمت أعرف فقط أن كابوسا ظل يغزو أحلامى لسنوات طويلة : برج يتمايل أ/امى ثم يسقط فوقى كم من أمسيات لم يكن على أن أسهر فيها وكم من أمسيات لم تحد معها المهدئات التى تنقذ المرء في العادة من رعب الظلام وأتذكر الآن ذلك الملك الطويل في ساعة النعاس وقد تجمدت قدماى ويداى خوفا من هذا البرج الذى جاء في تلك الليلة ايضا مقتحما البيت كله وسهادى المروع .

كانت أمى على حق : فقد كان ذلك غباء ومع هذا فخرافة السيرك قائمة داخل كل الاسر بحيث يصطحب الطفل بمجرد تعلمه المشى لمشاهدة " المهرجين " اعتقادا بأن المهرجين " من أجل الاطفال " والى جانب المهرجين توجد الاسود التى تزأر وتطلق صيحات مرعبة ثم المروضين الذين يلهون وهم يفتحون أفواه تلك الاسود ويدخلون رؤوسهم فيها ويوجد البهلوانات الذين يخاطرون بحياتهم في كل حركة ولاعبو المتوازيين الذين يرتفعون فوق اهرامات غير آمنه بعيدا عن الارض بخمسة عشر مترا والسكاكين الحادة الموجهه الى لوح من الفلين حول وجه سيدة جميلة فما الفائدة من أرهاب الطفل أى طفل بأعطائه جرعة من الكوابيس المرعبة يصبح من الصعب التخلص منها بعد ذلك . لكن التقليد مستمر : إصطحاب الاطفال الى السيرك والتأكد من أنهم سيلهون فيه " حقا بالتأكيد والصغار أيضا فهناك يوجد المهرجون ! "